

بين الفلسفة والدين

للدين فى جمهورىة أفلاطون مكانة سامىة؁ فهو ضرورة من ضرورات المجتمع وركن من أركان الحىة السعىة؁ وعامل من أهم العوامل التى تبعث السكىنة فى النفوس.

وهو ضرورى للفرد كما هو ضرورى للجماعة؁ ولهذا قسا أفلاطون على الملحد فجعل جزاءه الإعدام فى كتاب القوانىن.

والإلة فى نظرىة أفلاطون مثال الخىر؁ وعله كل ما هو جمىل وخر؁ وهو مبدأ العلم والحق؁ وأشرف موضوع لنظر الفىلسوف.

أما تلمىذه أرسطو فالإله عنده عقل محض متفرد بذاته؁ لا صلة له بالكون وهو منظمه وحافظه؁ اسمه الأبدى؁ وعمله الخلود؁ منزه عن الخطأ بحب الفضلاء؁ وىتقبل القرابىن؁ وهو فوق كل ثناء؁ وفوق العلم والإدراك؁ لا حاجة به إلى ولى أو نصىر؁ عرشه فى السماء؁ وهو أصل الحركة ومبدؤها. لا يفعل إلا الخىر؁ ولا يفعل شىئاً عبثاً. فلا يمكن أن يكون منشئ الفوضى. عمله الأبدى علمه بذاته؁ وهو منزه عن العلم بالجزئىات؁ وإن كان واهب العقل والىد إلى الإنسان.

ومذهب أرسطو هذا أثار كثيراً من المشكلات إذ قرر أن الله مدبر للعالم دون أن ىتصل به أو يكون له علم بالجزئىات؁ ثم قال بقدّم المادة أيضاً فجعل بذلك للعالم أصلىن.

وقصور راء أرسطو فى هذا الموضوع جعل تلامىذه ىتفوقون فى هذه

المشكلات، ثم انصرفوا عن الإلهيات بعد أن يسوا من حلها حلا يتفق مع العقل .

وظن الرواقيون أنهم وجدوا حلا لها فى القول بوحدة الوجود، أو وحدة العقل والمادة، أى أنه ليس هناك إلا عالم واحد وجوهر واحد هو عقل ومادة معاً، لا يمتاز أحدهما عن الآخر، إذ أن العقل يحل فى المادة دائماً . فلما ظهرت مدرسة الإسكندرية استخلصت مذهبها من هؤلاء جميعاً، واتجهت فى فهم الفلسفة اتجاهًا جديدًا فى نوعه امتاز بالقول بأن الفلسفة والعبادة شىء واحد لاتحاد الغاية فيهما، وهى الاتصال بالإله، وإنما الفرق بينهما فى الأساليب المؤدية إلى تلك الغاية .

وقد روى الفارابى رأى الأفلاطونية الحديثة وبسط مذهبها فى كتاب تحصيل السعادة فقال: "إن القدماء كانوا يذهبون إلى أن الملة والفلسفة تشتملان على موجودات بأعيانها، وإن كان كليهما تعطيان علم المبدأ الأول للموجودات؛ والغاية القصوى التى لأجلها كون الإنسان، وهى السعادة القصوى، والغاية القصوى فى كل واحد من الموجودات الأخر .

كان الفارابى فى هذا راويًا ثم لم يلبث أن اصطنع هذا الرأى وجهر به فالفلسفة والدين عنده لهما هدف واحد هو تحقيق السعادة القصوى، وإن كانا يختلفان فى الوسائل المؤدية إلى ذلك .

وكان من نتائج هذا التصور أن تفلسف الفارابى فى الدين وحاول أن يؤوله تأويلا فلسفيًا .

فلأول مرة فى التاريخ نجد فيلسوفًا يضع لبعض المسميات الشرعية

مقابلات في مذهبه الفلسفي: فالروح الأمين أو روح القدس هو العقل الفعال، والملائكة هي العقول الثواني التي تفيض عن واجب الوجود، والملا الأعلى أو الملكوت هو مرتبة العقول الثواني في مذهب الصدور، وصفات الله الأزلية هي المثل التي قال بها أفلاطون.

ويرى الفارابي أن التأويل لفهم الدين ينبغي ألا يباح للناس جميعاً، بل هو فرض على الخاصة من أهل العم " لأن سبيلهم ألا يقتصروا في معلوماتهم على ما يوجهه بادي الرأي المشترك، بل يقصدون ما يقصدون، ويعلمون ما يعلمون عن مقدمات تعقت غاية التعقب ".

أما العامة " فينبغي أن يقتصر بهم في معلوماتهم النظرية على ما يوجهه بادي الرأي المشترك، وأن يستعمل في تعليمهم الطرق الإقناعية والتخييلات " ويفرق الفارابي بين وسائل الفلسفة والدين فيقول:

" إن طرق البراهين الحقيقية منشأها من عند الفلاسفة .. وأما طرق البراهين المقنعة المستقيمة العجيبة النفع فمنشأها من عند أصحاب الشرائع الذين عوضوا بالإبداع الوحي والإلهامات ...

والبرهانيات موكولة إلى أصحاب الأذهان الصافية والعقول المستقيمة، والسياسات موكولة إلى ذوى الآراء السديدة، والشرعيات موكولة إلى ذوى الإلهامات الروحانية. وأعلم هذه كلها الشرعيات، وألفاظها خارجة على مقادير عقول المخاطبين، ولذلك لا يؤخذون بما لا يطيقون تصوره ".

ولكننا نتلقى الدين عن طريق الوحي، بينما تنهض الفلسفة على النظر العقلي، فكيف يمكن أن يتلقى الوحي الإلهي مع عقل الإنسان؟

لنبدأ أولاً ببيان الوحي في الدين ثم نعرض بعد هذا لرأى الفارابى فيه .
ورد ذكر الوحي في القرآن في أكثر من معنى . وفي أغلب هذه المعانى
كان الوحي تعبيراً عن نوع من الصلة بين الله وأشياء أخرى . هذه الأشياء قد
تكون الأرض أو السماء أو النمل أو صفوة من البشر .

والذى يهمنا هو هذه الصلة التى كانت بين الله وبين طبقة ممن أوحى
إليهم من البر وهم الأنبياء .

رائدى اتفق عليه معظم المفسرين هو أن هذه الصلة تكون إما إلهاماً
وقدماً فى الروح يقظة أو مناماً من غير واسطة ، أو تكليماً ، أو تبليغاً بواسطة
رسول من الملائكة .

والإلهام صلة روحانية لا علاقة لها بالمادة .

أما التكليم فيشعر بأنه إسماع الله أنبياءه ألفاظاً من غير واسطة .

أما الوحي عن طريق الرسول فالروح السائد فى كتب السير ينزع غالباً
إلى تصوير الملك بصورة مادية . فأحاديث بدء الوحي تمثل جبريل جسماً حتى
أنه ليهمز الأرض بعقبه فتنبع عين ماء يتوضأ منه جبريل ويتوضأ منه النبى .

وتمثله رجلا فى صورة دحية بن خليفة الكلبي ، أو ذا صوت كصلصلة
الجرس ، أو فى صورته التى خلق عليها له ستمائة جناح يتشرب منها اللؤلؤ
والياقوت .

وقد نزع المتكلمون فى تفسير الوحي هذه النزعة المادية . فالملائكة عندهم
أجسام لطيفة قادرة على التشكل بأشكال مختلفة .

واختلف المتكلمون فى الوحي الحاصل بسماع كلام الله من غير واسطة

أهو قديم أم حادث. ولكنهم اتفقوا على أنه كلام مؤلف من حروف مسموعة وأصوات مؤلفة.

ونحن نرى من هذا أن الرأى الدينى فى الوحى يجعله تارة روحانيًا وتارة أخرى ماديًا.

فهل سلم الفارابى بالوحى؟ وهل ذهب مذهب رجال الدين فى فهمه؟. لقد سلم الفارابى بالوحى ولكنه فهمه فهمًا خاصًا، حاول فيه التوفيق بين فكرة الوحى فى الدين وبين نظره الفلسفى.

وقد سبق أن بينا أن الفارابى جعل العقل الفعال - وهو أحد العقول العشرة المتصرفة فى الكون - مصدرًا للعلم الإنسانى، وهذا العقل - فى رأيه - جوهر مفارق أى لا يلبس المادة، ويسميه الروح الأمين وروح القدس، ويرى أنه نقطة الاتصال بين العبد وربّه، وهو مصدر الشرائع والقوانين الضرورية للحياة الخلقية والاجتماعية.

واتصال الإنسان بالعقل الفعال، إما أن يكون عن طريق القوة الناطقة وذلك بالتأمل والنظر وعندها يكون المتصل فيلسوفًا، وإما أن يكون عن طريق القوة المتخيلة فيكون المتصل نبيًا.

وهذا الاتصال هبة للأرواح القدسية التى تستطيع أن تخترق حجب الغيب.

يقول الفارابى:

"الروح القدسية لا تشغلها جهة تحت عن جهة فوق، ولا يستغرق الحس الظاهر حسها الباطن، وقد يتعدى تأثيرها من بدنها إلى أجسام العالم، وما فيه؛ وتقبل المعلومات من الروح والملائكة بلا تعليم من الناس".

ولكن كيف يحدث الاتصال بين العقل الفعال وبين النفس الإنسانية عن طريق القوة التخيلية؟

يقول الفارابى: إن للنفس الإنسانية قوى مختلفة، وهذه القوى يخدم بعضها بعضاً: فالحاسة تخدم التخيلة، والتخيلة تخدم الناطقة.

أما الحاسة فهي القوة التى نحس بها سائر المحسوسات الموجودة فى العالم الخارجى.

والتخيلة هى القوة التى تحتفظ بصور العالم المحسوس المنقولة إلى الذهن عن طريق الحواس. ولا يقتصر عملها على ادخار الصور، بل تستحضرها عند الحاجة. ولها أيضاً قدرة على الخلق والابتكار، فتارة تخلق صوراً ذهنية تحاكي بها ما عرفته من قبل، وتارة تؤلف من أجزاء هذه الصور صوراً أخرى جديدة، أو تحللها إلى أجزائها. وقد تخلق صوراً ذهنية مبتكرة لا تماثل ولا تحاكي الصور الذهنية التى تلقته عن طريق الحواس.

أما القوة الناطقة فهي القوة التى ترسم فيها صور المعقولات.

"والتخيلة فى نظرية الفارابى لها دور هام، فهى متينة الصلة بالميل والعواطف، وذات دخل فى الأعمال العقلية والحركات الإرادية؛ تمد القوى النزوعية بما يستثيرها إلى هدف معين، وتغذى الرغبة والشوق بما يدفعهما إلى السير فى الطريق حتى النهاية؛ هذا إلى أنها تحتفظ بالآثار الحسية وصور العالم الخارجى المنقولة إلى الذهن عن طريق الحواس.

من الصور الجديدة التى اخترعها المخيلة تنتج الأحلام والرؤى.

والذى يهمنا هنا قبل كل شىء هو أن نبين أثر القوة التخيلية فى تكوين

الأحلام، فإننا إذا فسرنا ذلك استطعنا أن نفسر النبوة، لأن الرؤيا الصادقة نوع من النبوة، والفرق بينهما نسبي لا غير.

عقد الفارابى فى كتابه "آراء المدينة الفاضلة" فصلين متتاليين؛ أحدهما "فى سبب المنامات"، والآخر "فى الوحي ورؤية الملك"؛ وفى هذا ما يبين الصلة بين هذين الباحثين.

بدأ بالكلام عن الأحلام فبين أن المخيلة فى حالة النوم لا تشغلها قوى النفس الأخرى كما تشغلها أثناء اليقظة، ولهذا تفرغ لبعض الظواهر النفسية فتخلق صوراً جديدة، أو تجمع صوراً ذهنية قديمة على أشكال مختلفة، متأثرة فى ذلك ببعض الإحساسات والمشاعر الجسمية، أو العواطف النفسية والمدركات العقلية. فأحوال النائم العضوية والنفسية وإحساساته ذات أثر واضح فى مخيلته، وفى تكوين أحلامه. واختلاف الأحلام إنما يرجع لاختلاف العوامل المؤثرة فيها، فصاحب المزاج الرطب يحلم بما يشابه ذلك كالماء والسباحة فيه. وكثيراً ما مثلت الأحلام تحقيق رغبة مكبوتة أو الفرار من أمر بغيض؛ وقد يتحرك الإنسان أو بعض أعضائه أثناء نومه تلبية لعاطفة خاصة. فالميلول الكامنة فى النفس، والإحساسات القديمة وكذلك الإحساسات التى تصاحب الحلم لها أثر عظيم فى تكييف الأحلام.

"وهذه الملاحظات على بساطتها تشبه بعض الشبه النتائج العلمية التى وصل إليها علماء النفس المحدثون أمثال فرويد وهارفى ومورى، وهم ممن اشتغلوا بدراسة الأحلام وتحليلها.

"والقوة المتخيلة التى تستطيع أن تحدث كل هذه الصور، نستطيع أيضاً أن تشكلها ابشكال العالم الروحانى؛ فىرى النائم السموات ومن فيها، ويشعر

بما فيها من لة وبهجة . وفوق هذا قد تتصل هذه القوة بالعقل الفعال وتتلقى منه الأحكام المتعلقة بالأعمال الجزئية والحوادث الفردية، وبذا يكون التنبؤ .
وقد يحدث هذا الاتصال أثناء اليقظة كما يحدث أثناء النوم .

يقول الفارابي :

"إن القوة المتخيلة إذا كانت في إنسان ما قوية جداً، وكانت المحسوسات الواردة عليها من خارج لا تستولى عليها استيلاء يستغرقها بأسرها، ولا يستخدمها للقوة الناطقة، بل كان فيها مع اشتغالها بهذين فضل كثير تفعل به أيضاً أفعالها التي تخصصها، وكانت حالها عند اشتغالها بهذين في وقت اليقظة مثل حالها عند تحللها منها وقت النوم . . . اتصلت بالعقل الفعال، وانعكست عليها منه صور في نهاية الجمال والكمال . وقال الذي يرى ذلك إن الله عظمه جليلة عجيبة، ورأى أشياء عجيبة لا يمكن وجود شيء منها في سائر الموجودات أصلاً .

"ولا يمتنع إذا بلغت قوة الإنسان المتخيلة نهاية الكمال أن يقبل في يقظته عن العقل الفعال الجزئيات الحاضرة والمستقبلية أو محاكياتها من المحسوسات، ويقبل محاكيات المعقولات المفارقة وسائر الموجودات الشريفة ويراهما، فيكون له بما قبله من المعقولات نبوة بالأشياء الإلهية . وهذا هو أكمل المراتب التي تنتهي إليها القوة المتخيلة، والتي يبلغها الإنسان بهذه القوة" .

ونحن نرى من هذا أن نظرية الفارابي يف الوحي تخالف نظرية المتكلمين من ناحيتين :

الأولى - أن الملك عنده جوهر مفارق للمادة، لا يتلبس بها بأى وجه

من الوجوه، وهو عند المتكلمين جسم لطيف قادر على التشكل بأشكال مختلفة.

هذا إلى أن فكرة التجسيم عند الدينيين تجعل للملك جسمًا له حقيقة ذاتية في الوجود الخارجى حتى أتيح للنبي ولغيره من الصحابة أن يروا الملك، بينما يؤول الفارابى هذا التجسيم بحيث يجعله انفعالا نفسانيًا لا غير، تخلعه القوة التخيلية على الإنسان فيراه رؤية المحسوسات دون أن يكون محسوسًا بالفعل، وهذا الانفعال من خصائص النبي وحده، فهو يرى ما لا يراه غيره.

الناحية الثانية - هى أن الفارابى أجاز الاتصال بالوحي أو العقل الفعال لغير الأنبياء بطريق كسى، فيمكن أن يتصل به طبقات من الناس يتفاوتون فى مراتبهم وفى دوام صلتهم به وفى نوع المعلومات التى يتلقونها منه، بينما الرأى الدينى فى الوحي ينزع إلى أنه لا يكتسب بالرياضات والمجاهدات والتأمل والنظر، بل يختص الله برحمته من يشاء من عباده، فالتبوة رحمة وموهبة متعلقة بمشيئة الله لا غير.
